حكاية بورخيس
التي لم تنشر في كتاب

عندما كنت ما أزال أحتفظ بعنوان بريدي ثابت وحياة مطمئنة نوعاً ما، وصلتني رسالة من جنيف، لم أكن أتوقعها أطلاقاً، ولم أفكر بهذه المدينة لأنني لا أعرف أحداً فيها، ولكن المفاجأة أن وصلت بريدي ومعنونة بإسمي. لم أعثر على عنوان مرسلها ولم أستدل عليه حتى فتحت الرسالة ووصلت لتوقيع مرسلها الذي جاء بالشكل التالي (خ. ل. بورخس)، بعد عبارة تمنياتي القلبية التقليدية التي ننهي بها الرسائل عادة.

إدركت، وهو ما لم أصدقه يوماً ما، أن المرسل هو بورخس، كاتبي الأرجنتيني المفضل وصاحب أجمل كتاب قصصي هو كتاب الرمل، الذي أحفظ قصصه عن ظهر قلب. من تاريخ كتابة الرسالة، عرفت أنه أرسلها قبل أسبوعين من وفاته. بالطبع لم أر رسالة سابقة لبورخس حتى أعرف إن كانت منه حقيقة أم مقلباً من شخص يعرف تعلقي بعوالم بورخس، ومع ذلك لم أكن على يقين تام بأنه قد كتب الرسالة، فعماه يمنعه، لهذا تصورت أنه أملاها على سكرتيرته وزوجته ماريا كوداما نفسها التي تخيلتها مرة في قصيدتي تلك التي عنونتها (فندق بورخس) في كتابي (ليس سوى ريح)، عند زاوية شارع في مقهى وسط لشبونة وهي تطوح بشعرها الفضي وتشير لي مصححة لي لقائي المتخيل مع بورخس: " لا شيء

الآن/ سيجيء بعد حين حتماً/ وقد يراك/ غير أنه لا يفقه البنايات ولا الجادات/ وأكثر من ذلك رقعة نحاس أعلى البناية، وتدل عليه".

يقول بورخس في رسالته الأخيرة تلك أنه يشكرني لمراسلته، وفي الوقت نفسه يعتذر على تأخره بالإجابة على رسالتي التي أرسلتها له منذ أكثر من سنتين، ولكنه يشير إلى أنه لم يكن يتوقع الشهرة في أعوامه الأخيرة ولم يسع لها، مثلما لم يسع لها ولو لمرة واحدة في حياته. فلم يكن يعرف ماذا يعمل أزاء آلاف الرسائل التي تصله وكأن الناس ظنت به أحد مشاهير المغنين، مع ذلك . يعترف . أنه كان يجيب عليها بتأن كلما سنحت له الفرصة ووقت ماريا كوداما التي مارست مهام الزوجة وكاتبة قلمه. حتى يصل للتالي في رسالته:

"عزيزي.. أنا ممتن لك لأنك تعرض علي ترجمة أعمالي القصصية كاملة للغة العربية، فهذا لطف كبير منك، يكفيني من الحياة أن يصل اليوم الذي أرى فيه قصصي تقفز من الإسبانية للعربية التي أعشقها وتعلمت منها القليل الذي ساعدني على قراءة المعلقات!. ولكني وإن كنت لن أصل لرؤيتها مترجمة، فيمكنني الأستدلال عليها الآن، من متاهتي الضبابية التي أجوس دروبها منذ سنين، أتلمسها متخيلاً أشكالها الغريبة، حروفها النافرة وألفاظها المضخمة كعمامة عربي ملتفة طياتها الواحدة فوق الأخرى حتى لا نهاية.. يا ليتني أصل لتمعنها!

لا أعرف متى تنتهي من ترجمة القصص ونشرها، قطعاً لن أكون في هذا العالم، ولكن حتماً ستصلني أخبارها في عالمي الجديد، هذا على أمل أن تنتظرني حياة طويلة ثانية وثالثة، إذ لا أرغب حقاً بأنهار من عسل ولا حور عين في الجنة القادمة، ما أتخيله كما يعرف الجميع، مكتبة ضخمة بمتناول يدي، أسحب منها أي كتاب دون عائق.

ما أريده منك هو أن تضيف هذه القصة التي أسردها عليك في نهاية الرسالة، ولتكن قصتي الأخيرة. بالطبع سيشكك بها الكثيرون، ولكن من سيهتم بما

يقوله الآخرون، فهي على أية حال ليست لي، ولكن من الممكن أن تقول على لساني أنني صاحبها (ألم أفعلها في أكثر من موقع؟)، كنت قد قرأتها في مخطوط قديم، لا بد أن يكون بالعربية، أو منقولاً عن مُؤلف عربي، للأسف لا أستطيع مساعدتك بالعثور على الأصل، فلست بإدراك تام أين قرأتها، في كاتدرائية الأسكوريال أم في رف من رفوف مكتبة بوينس آيرس التي عملت فيها ولم أتركها حتى فقدت بصري. لا بد أن المخطوط قد ضاع هو الآخر، مثل العديد من المخطوطات الأخرى، مثل الأمال العظيمة التي لن تصل عتبة ختامها بسلام.

في القراءة الأولى ترجمت النص كلمة كلمة حتى توصلت لفك حروفه حرفاً حرفاً، ولا بد أنني هنا أزيد عليه وأنقص منه، فلم تعد ذاكرتي تساعدني كثيراً، ولكني متأكد أنها جرت في بغداد وصاحبها من زمرة مؤلفي ألف ليلة وليلة أو حفيد لهم. يسعدني أن أبعثه لك كي تعيده للعربية من جديد.

امنياتي وتحياتي القلبية ... ...

(توقيع: خ.ل. بورخس)

حكاية بورخس

المضافة لقصصه الكاملة

يحكى، والعهدة على القائل، أنه عاش ببغداد، في جانب الرصافة من نهر دجلة، رجل أختلف أهل المدينة فيه، فمنهم من وصفه بالدرويش أو البهلول ومنهم من عده أحمق، ولكنهم لم يختلفوا كثيراً بوصفه بالغريب الأطوار. مرات كانوا يوقفونه في وسط الجادة وينهالون عليه بالأسئلة التي يجيب عليها بتمهل وثقة

يحسده عليها حكماء البلد. أحياناً أخرى يتجاهلونه بعد أن ملوا رؤيته بأسماله، شعره المجعد ولحيته التي تصل ركبتيه. لم يروه بصورة أخرى غير صورته المعتادة، يمضي ساهماً في طريقه الذي يقطعه عشرات المرات بين طرفي الرصافة حتى النهر، متأبطاً صندوقاً خشبياً مدهوناً باللون الأسود، لا يتركه من يديه أطلاقاً. حاولوا مرات عديدة مغافلته وسرقته، لكنه كان مهملاً في كل شيء غير هذا. فمن يراه يسير متأبطاً الصندوق، يظن به أحد أطرافه، فلم يضعه أرضاً لمرة ولا حتى في منامه.

من تقرب منه وسأله عن الصندوق، لم يخرج منه إلا بإجابة واحدة حفظها أهل المدينة عن ظهر قلب:

– هذا صندوق العالم، عبره أستطيع رؤية ما يجري في كل مكان.

وعندما كانوا يسألونه لماذا لا يدعهم يرون العالم مثله، كان يضحك ويجيب:

– هذا لي ولم يصنع لكم، فابحثوا بأنفسكم عن صندوقكم.

لكنهم في مراقبتهم له، رأوه يغيب لأيام، ولا أثر له ولا لصندوقه.

غير أنه كان يعود في كل مرة، كما هو، أكثر تيهاً وارتباكاً مما كان عليه في السابق.

البهلول مع كل عودة كان يقف وسط المدينة ويقول قولاً جديداً:

في المرة الأولى قال: لن تجد راحة لو كنت أنا أنت وأنت أنا.

في المرة الثانية: ما هو العاقل؟ الذي لا يفرح في امتلاك أشياء هذا العالم.

– ما هو العالم؟ غربة لمن جربه.

– ما يشبه العالم؟ أحقر من أن يقارن بشيء، لأن كل ما بعده هو أحسن منه.

– نحن لا نعلمكم الشيء الذي لا تعرفونه، لكننا نذكركم بالشيء الذي تعرفونه حق المعرفة.

- أين ممتلكاتك؟ ولا أشير لما بين يدي.

أحاديث البهلول وصندوقه لم تمر عبثاً عند والي المدينة، فأمر بأن يحضر أمامه. ولما أعيت حرسه محاولة القبض عليه، فقد خصص جائزة لمن يجده قيمتها عشرة أكياس من الدنانير الذهبية.

لكنهم لم يفلحوا بكل محاولاتهم، فما أن ينقضوا عليه، حتى يكون قد دخل الصندوق، ويخرج لهم من جهة أخرى بعيدة عن متناول أيديهم. وهكذا بلا عد. في كل مرة كانوا يرونه بحال أخرى، ملابس جديدة، وعمر آخر. أمام أنظارهم، رأوه عجوزاً ليعود بعد أيام بحلة صبي، وقبل أن يستيقظوا من هول المفاجأة حتى يكون قد ألقى عليهم مشورة جديدة من أقواله التي قيل إن أحدهم قد جمعها في مخطوط، لم يسلم هو الآخر، وحرق أو ألقي من ضمن الآف الكتب التي ألقيت في نهر دجلة بعد سنين، أيام غزو المغول.

لما رأى الملك أن لا حيلة للقبض عليه، أمر جيشه ترك حدود الإمبراطورية والزحف لبغداد، حتى يساعدوه بالقبض على البهلول، الذي جعل منه العدو رقم واحد في كل البلاد.

بعد أكثر من شهرين وبضعة أيام من الملاحقة والترصد، قبض افراد الجيش بمساعدة الشرطة وأهالي المدينة على صاحب الصندوق، إذ كان غافياً عند ضفة النهر. يقول أحد المؤرخين أن جحافل الملاحقين أصطادوه بشباك من حبال غليظة " كما يصاد النمر الجريح" ولم يستطع تلك المرة الوصول للدخول في فتحة الصندوق.

كان القبض على البهلول، غافياً عند ضفة النهر، بمثابة احتفال شعبي دام سبعة أيام.

في اليوم الثامن، ساقوه من سجنه حتى قصر الوالي. أمام الوالي لم ينطق بكلمة، ولم يلتفت لتساؤلاته، مما جر عليه غضب الوالي، فكان أن أمر بصلبه في الساحة العامة. لم يكن الصلب شائعاً بعد في بغداد، وتلك كانت المرة الأولى، ليكون عبرة لمن لا ينفذ قرارات الوالي.

ما أن رفعوا البهلول على خشبة صلبه حتى قال جملته الأخيرة:

- كيف أرى وجهي؟ أن أيام فرحكم ستنتهي وايام حزني على وشك الإنتهاء.

وتوسد خشبته، فرأوه للمرة الأخيرة كما عهدوه دائماً، ثم اختفى.

يقول أهالي المدينة، أن الصندوق لا يزال في عهدة الوالي حتى جزع من معرفة أسراره. فطلب من منجمي المدينة، حواتها، نجاريها وعيونها محاولة أكتشاف لغز الصندوق. قبل أن يعلن الجميع فشلهم، كانوا قد فككوا الصندوق قطعاً صغيرة، ولما شاؤوا أن يعيدوه لوضعه الأول، لم ينجحوا أبداً. كانت كل قطعة من الصندوق، بدت لهم كأي قطعة خشب عادية، ولم يروا فيها أي سر أو مهارة.

لكنهم تعجبوا تماماً عندما راقبوا خشب الصندوق المفكك يرتفع بقدرة قادر أو أصبح جناً.

راقبوه متوسداً سماء المدينة، يدل أهاليها على ما لم يروه أبداً، لكنهم لم يستطيعوا الوصول للمسه أو الدخول في عالم فرجته.

كل شهر تنقص سماء بغداد قطعة من الصندوق، دون أن يلمحوا تبدلاً. حتى أختفت الخشبات كلها. عند ذلك رأوا ما لم يروه في حياتهم. تفتق النهر، دجلة، وتمدد مخرجاً من أحشائه أراضي جديدة عند ضفته الأخرى، التي لم تعرف له ضفة بعد، حتى لمحوا بعد أشهر بيوتاً تبنى، بنايات ترتفع، وأناساً تأويها. فصاح الجميع بلفظ لم يعرف له معنى قبل ذلك: هي الكرخ.

منذ ذلك الحين، وبغداد يشقها دجلة إلى نصفين، نصف رصافته، ونصف كرخه الذي رأوه ينبني خشبة بعد أخرى من صندوق البهلول المصلوب.

يقول الراوي أن القصص لا تنتهي ما أن نصل النهاية، القصص تكرر نفسها ما أن نقول: يحكى... فالجزم بأن الصندوق قد اختفى بهذه الطريقة، ليس سوى محض خيال.

بعد سنين، وفي حكم والي آخر، رأى أهالي بغداد، رجلاً مطرق الرأس يتهادى بمشيته، قاطعاً جسر الخشب الذي بناه البغداديون كي يوصل ما بين الرصافة والكرخ، وما أن يحل المساء حتى يتوقف ويلقي عليهم حكمة جديدة دون أن ينتظر رد فعلهم أو يلمح في وجوههم تغيراً ما و.. بالطبع لا ينسى للحظة صندوقه الأسود، قابضاً عليه بعزم ويحضنه بقوة لا فكاك منها.